الدلالة العامَّة للجبال
في القرآن الكريم

م .د . أحمد طايس حسن علي

كلية الإمام الاعظم «رحمه الله» الجامعة

خلاصة البحث

لقد تعدد ذكر الأماكن الطبيعية المختلفة في القرآن الكريم، وتباينت مسببات ذكرها، والألفاظ الدالة عليها، فالأماكن الطبيعية في معظمها جاءت من أجل إثبات قدرة الله تعالى، ولاسيما أن هذه الأماكن تحيط بالإنسان يمربها أو يعيش فيها، ويأتي ذكربعض هذه الأماكن الطبيعية لترسم صورة واقعية في ذهن المتلقي لا يحتاج معها إلى ان يبذل جهد كبيرلمعرفة خالقها .

وأن بعض الأماكن كانت موضعاً لأحداث مهمة، وهو ما يعرف بالمكان المحوري الذي شهد أو يشهد بعض الوقائع، وقد درست الآيات الشريفات التي تناولت الجبال بعد إحصائها، وبينت ما يمكن استنباطه من دلالات عامة ارتبطت بذكرالجبال.

Abstract:

The various natural places mentioned in the Holy Qur'an have been multiplied، and the reasons for mentioning them varied، and the expressions indicating them. Most of the natural places are mentioned in order to prove the power of Allah Almighty، especially since these places surround a person who passes through or lives in them. These natural places are mentioned to draw a realistic picture in the mind of the recipient that does not require that much effort be made to know its Creator.

Some places were the site of important events، which is known as the pivotal place that witnessed or witnesses some incidents. The holy verses that dealt with mountains were studied after they were counted، and showed what could be deduced from general connotations associated with mentioning the mountains.

مقدمة

الحمد لله ذي الطَّول والآلاء، وصلّى الله على سيِّدنا محمد خاتم الرسل والأنبياء، وعلى آله وأصحابه الأتقياء.

أمّا بعد؛ فإن الموضوعات التي تناولها القرآن الكريم أو التي أشار إليها زاخرة بالمضامين والمعاني التي تستوجب الدراسة والبحث، ومن هذه الموضوعات التي ورد ذكرها المواضع الطبيعية، وقد تباينت الإشارة إليها على حسب السياق القرآني، وقد تناولت بعض الدراسات والبحوث هذه المواضع فعرفت بها تعريفاً جغرافياً، أو بينت بعض الأحكام الفقهية المرتبطة بها؛ ولكن الدراسات التي تناولت العلاقة بين هذه المواضع وبين السياق القرآني وأثرها في استجلاء المعاني محدود للغاية، لذلك أردت تناول بعض هذه المواضع وبيان أثر ذكرها في توضيح المعنى القرآني .

لقد تعدد ذكر الأماكن الطبيعية المختلفة في القرآن الكريم، وتباينت مسببات ذكرها، والألفاظ الدالة عليها، فالأماكن الطبيعية في معظمها جاءت من أجل إثبات قدرة الله تعالى، ولاسيما أن هذه الأماكن تحيط بالإنسان يمر بها أو يعيش فيها، ويأتي ذكر بعض هذه الأماكن الطبيعية لترسم صورة واقعية في ذهن المتلقي لا يحتاج معها إلى ان يبذل جهد كبير لمعرفة خالقها .

وأن بعض الأماكن كانت موضعاً لأحداث مهمة، وهو ما يعرف بالمكان المحوري الذي شهد أو يشهد بعض الوقائع، ولا شك أن توظيف هذه المواضع يساعد على تجسيد الأفكار ويقربها إلى الأفهام، مما يعرف بالتجسيد المكاني الذي يرافق الأحداث الاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية والزمانية .

وقد وقع اختياري على الجبال لدارسة أثر ذكرها في بيان المعنى القرآني، في بحث أسميته **(الدلالة العامة للجبال في القرآن الكريم)**. وقد درست الآيات الشريفات التي تناولت الجبال بعد إحصائها، وبينت ما يمكن استنباطه من دلالات عامة ارتبطت بذكر الجبال، وقد اعتمدت على الاستنباط لبيان هذه المعاني، ولاسيما أني لم أقف على كتابات أو بحوث تعرضت لهذا الموضوع .

- **وقد قسمت هذا البحث على ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: المعاني المرتبطة بذكر الجبال .

المبحث الثاني: أوصاف الجبال .

المبحث الثالث: دك الجبال .

ثم ختمت البحث بخاتمة لخصت فيها أهم ما جاء في هذا البحث .

مبحث تمهيدي

يتناول هذا المبحث التمهيدي ثلاثة محاور، وهي تعريف الدلالة لغة واصطلاحاً، وتعريف المعنى لغة واصطلاحاً، والفرق بين الدلالة والمعنى.

- **أولاً:**

الدلالة لغة: مصدر دَلَّهُ على الطريق دَلالَةً ودِلالَةً ودُلولَةً، في معنى أرشده، ودَلَّه على الشيء يَدُلُّه دَلاًّ ودَلالةً فانْدَلَّ: سدَّده إليه[١].

فالدلالة لغة يدور معناها حول الإرشاد والإبانة والتسديد بالأمارة أو بأي علامة أخرى لفظية أو غير لفظية.

الدلالة اصطلاحاً: هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول[٢].

- **ثانياً:**

المعنى لغة: هو إما (مَفْعَل) كما هو الظاهر من (عَنى يَعْنِي) إذا قصد المقصد، وإما مخفف (معنَّى) بالتشديد اسم مفعول منه أي: المقصود، وأيّاً ما كان لا يطلق على الصور الذهنية من حيث هي، بل من حيث إنها تقصد من اللفظ[٣].

المعنى اصطلاحاً: من المصطلحات التي كثر الاختلاف في تعريفها بسبب اختلاف الدراسات وميادين البحث، فقد يراد به مرة المعنى الصرفي، وأخرى المعنى الدلالي بصفة عامة، وثالثة المعنى النحوي، أي وظيفة الكلمة في الجملة كالفاعلية والمفعولية والإضافة[٤].

---

(١) الصحاح تاج اللغة لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، مط: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م، مادة (دلل): ٤/ ١٦٩٨، ولسان العرب، لابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير + محمد أحمد حسب الله + هاشم محمد الشاذلي، مط: دار المعارف.
البلد: القاهرة، الطبعة: الأولى، مادة (دلل): ٢/ ١٤١٤.

(٢) التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، تحقيق: جماعة من العلماء، مط: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م: ص١٠٤.

(٣) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مط: مؤسسة الرسالة - بيروت: ص٨٤١.

(٤) الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ)، مط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة: (١/ ٣٦).

- **ثالثاً:**

الفرق بين الدلالة والمعنى.

من خلال البحث والتتبع لمختلف الكتب والمؤلفات التي تناولت الدلالة والمعنى نجد أَنَّ المحدثين اختلفوا فيما بينهم على ثلاثة أراء:

١. بعضهم يرى كلا المصطلحين - مصطلح الدلالة ومصطلح المعنى - مترادفين.

٢. بعضهم يرى أن المعنى أعم من الدلالة؛ لأن الدلالة مقتصرة على اللفظة المفردة.

٣. والبعض الآخر يرى أن الدلالة أعم من المعنى؛ لأنَّ كل دلالة تتضمن معنى، وليس كل معنى يتضمن دلالة فبينهما عموم وخصوص[١].

(١) علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، لهادي نهر لعيبي، مط: دار الأمل للنشر والتوزيع - إربد - الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م: ص٢٧، ٢٨.

المبحث الأول

المعاني المرتبطة بذكر الجبال

لا بد من تعريف الجبال لغة واصطلاحاً قبل الخوض في الجزئيات والتقسيمات حتى تكون الصورة واضحة جلية أثناء المرور على كل كلمة جبل أو معنى متعلق بلفظ الجبال.

الجبل لغةً: اسم لكل وتد من أوتاد الأرض إذا عظم وطال من الأعلام والأطواد[١].

الجبل اصطلاحاً: هو المرتفع الذي يبرز فوق سطح الأرض لبعض مئات أو آلاف من الأمتار، وتكون له جوانب شديدة الانحدار، ويشترك التل مع الجبل في البروز وشدة انحدار الجوانب؛ ولكنه يكون عادة أقل منه ارتفاعًا، وقد لا يزيد ارتفاعه عن بضع عشرات من الأمتار، ومع ذلك فإن لفظ جبل كثيرًا ما يطلق على بعض التلال[٢].

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي نجد أن التعريف اللغوي يشتمل على الجبل والتل بالمصطلح الجغرافي، حيث أن التعريف الاصطلاحي يفرق بين الجبل والتل على حسب قياس الارتفاع عن وجه الكرة الأرضية، بمعنى أن التعريف اللغوي يكون أعم من الاصطلاحي فكل جبل أو تل اصطلاحي هو جبل لغوي.

وقد انقسمت الجبال التي ذكرت في القرآن الكريم على قسمين:

القسم الأول: جبال معينة معروفة ذكرت بأسمائها، وهي ترتبط غالباً بأحداث تاريخية مهمة .

القسم الثاني: ذكر عام لجميع الجبال من دون تخصيص، وهي ترتبط غالباً ببيان قدرة الله تعالى ونعمته على عباده .

وفيما يأتي بيان المعاني العامة المرتبطة بذكر هذين القسمين، وما تجدر الإشارة إليه أنَّ الجبال ذكرت في القرآن الكريم بصيغ مختلفة (٣٩) مرة [٣]، وقد ارتبط ذكر الجبال بالمعاني العامة الآتية:

---

(١) لسان العرب، مادة (جبل): ٩٦/١١.

(٢) ينظر: المقدمات في الجغرافيا الطبيعية، للدكتور عبد العزيز طريح شرف، مط: مركز الأسكندرية للكتاب، الطبعة: الأولى: ص١٩٦.

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبدالباقي، مطابع الشعب، مصر، ط١، ١٣٧٨هـ: ١٦٣ ١٦٤ .

١- ارتباط ذكرها بقصص الأنبياء:

ارتبط ذكر الجبال بقصص عدد من الأنبياء عليهم السلام، وكان للجبل في كل قصة مدلوله الخاص، وفيما يأتي ذكرها على حسب تسلسلها الزمني:

أ- قصة نوح عليه السلام :

﴿* وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هُود من الآية ٤١ الى الآية ٤٣] .

فالجبال كانت دالة على السلامة في حقّ نُوح، والهَلَكةِ في حقّ المشركين من قومه[١].

وقد ذكر الجبل هنا مرتين:

الأولى: لبيان عظم الأمواج التي كانت تمخر السفينة فيها، فقد شبهت هذه الأمواج بالجبال، و«هذا يدل على أنها كانت آية؛ لأنَّ الأمواج تمنع من جريان السفينة وسيرها، فإذا أخبر أنها لم تمنع هذه من جريانها، دل أنه أراد أن تصير آية لهم»[٢]، فالجبال هنا ذكرت للتشبيه .

الثانية: وهو ذكر حقيقي لجبل مخصوص بعينه، وأياً كان هذا الجبل، فهو يدل على أنه عاجز عن العصمة من الغرق، وفي هذا تأكيد آخر على هول هذه الأمواج .

وقد تصور ابن نوح أنَّ هذا الجبل «بسبب ارتفاعه، إذ لا يبلغه الماء مهما ارتفع»[٣]، سيعصمه .

وقد اختلف العلماء في هذا الجبل، والراجح أنه في جزيرة الموصل[٤] .

ب- قصة إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البَقَرَة الآية ٢٦٠] .

---

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز، لأبي الطاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الصديقي الشيرازي، (ت٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية-لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٩م : ٢/ ٣٦٢ .

(٢) تأويلات أهل السنة، لأبي منصور محمد بن محمد الماتريدي، (ت٣٣٣هـ)، تحقيق : د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ٢٠٠٥م : ٦/ ١٣٣.

(٣) بيان المعاني، لعبدالقادر ملا حويش آل غازي العاني، (ت١٣٩٨هـ)، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٨٣هـ١٩٦٤م : ٣/ ١١٩ .

(٤) المرجع نفسه : ٣/ ١١٩ .

ههنا ارتبط ذكر الجبل بمعجزة إحياء الموتى، و «لإظهار القدرة والإحياء بعد الإماتة»[١]، ولا خلاف بين المفسرين في تجزئة الطيور الأربعة ؛ ولكنهم اختلفوا في نوعها وفي عدد الجبال التي وزعت عليها هذه الأجزاء، وهذا مما لا دليل عليه، ولا طائل من البحث فيه، كما ذهب إلى ذلك الطبري، وقال : «وإنما أمر الله إبراهيم ﷺ أن يجعل الأطيار الأربعة أجزاء متفرقة على كل جبل»[٢].

والسؤال المطروح: لِمَ اختيرت الجبال لوضع أجزاء الطيور المتفرقة، ولمَ لمْ توضع على أرض فلاة مثلاً ؟

والظاهر أن الحكمة من ذلك متحققة في جملة أمور - والله أعلم - وهي :

إن وضعها على جبال متفرقة أبعد من الظن بأن شخصاً ما يستطيع أن يعبث بها، أو أن تعبث بها الحيوانات.

إن وضعها في مكان مرتفع، سيؤدي إلى تزايد البعد المكاني، مما يتيح للمراقب التأمل والتفكر.

إن وضعها على الجبال يتيح للمراقب أن يلاحظ قدومها من غير عوائق تمنع رؤيتها بسبب ارتفاع الجبل عما حوله.

والذي يؤيد هذا أن الآية أكدت أهمية نفي الشبهة واستبعاد ما يؤدي إلى حدوث أدنى شبهة أمران :

الأول: قوله تعالى : ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البَقَرَة الآية ٢٦٠] ، إذ المألوف أن الطير يطير، «والحكمة في المشي دون الطيران كونه أبعد من الشبهة ؛ لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطير، وإن أرجلها غير سليمة»[٣].

الثاني: الأمر بالضم بعد الأخذ، قال الزمخشري : « فان قلت: ما معنى أمره بضمها إلى نفسه بعد أن يأخذها ؟

قلت: ليتأملها ويعرف أشكالها وهيئاتها وحلاها، لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء، ولا يتوهم أنها غير تلك[٤].

ج- قصة موسى -عليه السلام-:

تكرر ذكر الجبل في قصة موسى - عليه السلام- أكثر من مرة، وقد أفاد ذكره في قصة موسى -عليه السلام - أمرين :

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ٣٦٢/٢ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بـ(تفسير الطبري)، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي الطبري، (ت٣١٠هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، مصر، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م : ٥١٠/٥.

(٣) معالم التنزيل المعروف بـ(تفسير البغوي)، لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، (ت٥١٦هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ: ٣٢٤/١ .

(٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، (ت٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ: ٣١٠/١.

الأول: استحالة رؤية الله تعالى في الدنيا:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأَعْرَاف الآية ١٤٣].

إذ بينت الآية استحالة رؤية الله تعالى في الدنيا بالقياس، إذ إن الجبل العظيم دك عندما تجلى الله تعالى له، فكيف يطيق الإنسان الضعيف هذا التجلي ؟ «لأن الجبل إذا لم يستقر لرؤيته، فالإنسان بذلك أولى»[1].

الثانية: تهديد بني إسرائيل:

بنو إسرائيل قوم جبلوا على المشاقة والعناد، لذلك جاء ذكر الجبل في معرض التهديد والوعيد بعقاب دنيوي، وقد تكرر هذا في أكثر من موضع في القرآن الكريم، من ذلك ﴿ ۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١﴾ [الأَعْرَاف الآية ١٧١].

النتق: الجذب، والمعنى: قلعناه ورفعناه فَوْقَهُمْ، أي: فوق بني إسرائيل حين أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة، فرفع الله عليهم الجبل كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ، أي: سقيفة، وَظَنُّوا، أي: أيقنوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ، وإنما أطلق الظن؛ لأنه لم يقع متعلقه، فأمروا بالجد والعزم على تحمل المشاق، وأمروا بترك قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق[2].

فالجبل هنا صار دلالة على الوعيد والعذاب الدنيوي، وأن ثباته ورسوخه في الأرض لا يمنعان من قدرة الله سبحانه وتعالى، وصار الجبل علامة على قبول الشريعة وأحكام التوراة.

د- قصة داود عليه السلام:

تكرر في بعض المواضع ذكر الجبال في قصة داود عليه السلام ، وأن الجبال أمرت بالتسبيح معه.

﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلّٗا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ [الأَنبِيَاء الآية ٧٩].

وقال سبحانه: ﴿ ۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠﴾ [سَبَإ الآية ١٠].

وقال جل جلاله: ﴿ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾ [ص الآية ١٨].

فالجبال هنا كانت معجزة في ذاتها، لخروجها عن المألوف، ومشاركتها داود عليه السلام التسبيح، وسيأتي بيانها في المبحث الثاني.

---

(١) النكت والعيون، المعروف بـ(تفسير الماوردي)، لأبي الحسن علي بن حبيب البصري، (ت٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ٢٠٠٤م: ٢/ ٢٥٨.

(٢) ينظر: تفسير المظهري، محمد ثناء الله العثماني الحنفي المظهري الباني بتي، (ت١٢٢٥هـ)، تحقيق: غلام نبى تونسى، المكتبة الرشدية، باكستان، ١٤١٢هـ: ٣/ ٤٢٧.

هـ- مع رسول الله ﷺ :

ارتبط ذكر الجبال برسول الله عليه السلام في عدد من المواضع، وهي :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الرَّعْد الآية ٣١] .

في هذه الآية دلالة على إعجاز القرآن الكريم، فقد طلب مشركو مكة من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بمعجزات ظاهرية حسية مثل معجزات موسى وعيسى - عليهما السلام-، فأخبرهم أنهم لن يؤمنوا به، والمراد بالقرآن هنا الكتاب الذي فيه المقروء، وفي هذا دليل على عظم معجزة القرآن الكريم، وأنه ليس كغيره من المعجزات، فهو فريد لا يشبه غيره[1] .

وفي هذا السياق يأتي ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر الآية ٢١] .

٢- وظيفة الجبال :

ذكرت الجبال في القرآن الكريم لبيان تثبيت الأَرض وتسكينها[2] من ذلك ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ [النَّازِعَات الآية ٣٢] . ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ [النَّبَإ الآية ٧] .

فقد ذكرت وظيفة الجبال بأنها تثبيت قشرة الأرض، وهذا ما أثبته العلم الحديث، وأدركها علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) في العصر الحديث[3] .

وهذا مما لا نراه بالعين المجردة ؛ ولكن اثبت العلم الحديث ذلك، وأثبت أن الجبال تزيد على الارتفاع الظاهر بعدة مرات، ولم تكتشف هذه الحقيقة إلا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر عندما تقدم (السير جورج ايري) بنظرية مفادها أن القشرة الأرضية لا تمثل أساساً مناسباً للجبال التي تعلوها، وافترض أن

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب المعروف بـ(التفسير الكبير)، وبـ(تفسير الرازي)، لأبي عبدالله فخر الدين محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل الشافعي المذهب الرازي، (ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، مصر، ط٣، ١٤٢٠هـ: ٢٩/ ٣٤٣ ؛ الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لأبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي، (ت٦٧١هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م : ٩/ ٣١٩ ؛ البحر المحيط، لأبي عبدالله أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي، الشهير بابن حيان وبأبي حيان، (ت٧٥٤هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ: ٦/ ٣٨٨ .

(٢) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٢/ ٣٦٤ .

(٣) ينظر: مباحث في إعجاز القرآن، د . مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م : ١٨٩ - ١٩١ .

القشرة الأرضية وما عليها من جبال لا تمثل إلا جزءاً طافياً على بحر من الصخور الكثيفة المرنة، وبالتالي فلا بد أن يكون للجبال جذور ممتدة داخل تلك المنطقة العالية الكثافة لضمان ثباتها واستقرارها وقد أصبحت نظرية (ايري) حقيقة ملموسة مع تقدم المعرفة بتركيب الأرض الداخلي عن طريق القياسات الزلزالية، فقد أصبح معلوماً على وجه القطع أن للجبال جذوراً مغروسة في الأعماق ويمكن أن تصل إلى ما يعادل ١٥مرة من ارتفاعاتها فوق سطح الأرض، وأن للجبال دوراً كبيراً في إيقاف الحركة الأفقية الفجائية لصفائح طبقة الأرض الصخرية[١].

٣- عمران الجبال:

ارتبط ذكر الجبال بالعمران واتخاذ البيوت في أربع آيات منها ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الشُعَرَاء الآية ١٤٩] . ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الحِجْر الآية ٨٢] .

وقد دلت هذه الآيات على ما كان عليه ثَمُود من مهارة وحِذَاقة في العمران، حيث وظفوا الجبال للسكن[٢].

فقد ذكرهم القرآن بإتقانهم لنحت الحجر، وإن نحت الحجر يستدعي حاسة فنية خاصة، ويستدعي قوة بدنية؛ وقد نعتهم القرآن في نحتهم للحجر بحالة ملابسة: فوصفهم مرة بأنهم (آمنون) ومرة بأنهم (فرهون)، والفاره : هو الذي يعمل بنشاط وخفة، ولا يأتيه ذلك إلاّ من خبرته بما يعمل، وعلمه بدقائقه واعتياده له[٣] .

ولم يقتصر الأمر على البشر، بل جاء ذكر النحل التي اتخذت هي الأخرى من الشجر بيوتاً في قوله ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [النَّحْل الآية ٦٨] .

قد أوحى الله تعالى أن تتخذ من بعض الجبال بيوتاً، و (من) تفيد البعضية، أي : لا تبنى بيوتها في كل الجبال[٤]، وهي الجبال التي لا يتعهدها أحد من الناس[٥] . كما أن ذكر الجبال هنا دل على تحصيل العَسَل للشِّفاءِ والرّاحة[٦] .

---

(١) ينظر: الفكرة الجيولوجية عن الجبال في القرآن، الدكتور زغلول النجار، إصدارات هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابطة العالم الإسلامي، مكة، ١٩٩٢م : ٣، والمعجزة الخالدة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، براهين ساطعة وأدلة قاطعة، لعلي محمَّد محمَّد الصَّلابي، مط: دار المعرفة- بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠١٣م: ص١٠٩- ١١١.

(٢) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٣٦٢/٢ .

(٣) ينظر : تفسير ابن باديس مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، لعبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، (ت ١٣٥٩هـ)، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه : أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م: ٣٩٧ .

(٤) ينظر: الكشاف : ٦١٨/٢ .

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب : ٢٣٧/٢٠ .

(٦) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٣٦٢/٢ .

٤- حال الجبال عند قيام الساعة :

ورد ذكر الجبال في بيان أهوال قيام الساعة وما يجري لها من تسيير أو تدمير، وللإخبار عن حال الجبال في القيامة لبيان الحيرة والدّهشة، وأغلب الآيات التي ورد فيها هذا الوصف كانت آيات مكية مثل سورة الواقعة والحاقَّة والقارعة لتأثير صعوبة القيامة[١]، وكما يأتي:

أ- تسيير الجبال: جاء هذا في ست آيات، منها ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ [الطُّور الآية ١٠] .

ب- دك الجبال ونسفها: جاء هذا في سبع آيات، منها قوله ﷻ ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾ [الحاقَّة الآية ١٤] .

ففي هذه الآيات وصف ذلك اليوم بالأهوال والشدة؛ لأنه تعالى ذكر أن السماء تمور موراً، أي: تستدير استدارة، وتتحرك تحركاً، وذكر سير الجبال وما ذكر، وهذه الأشياء من أشد الخلائق وأصلبها، فهول ذلك اليوم وشدته عمل فيها ما ذكر من التحرك والسير والتغير وغير ذلك. وفيه أن هذا العالم كله أنشأه بحيث يفنيه وينشئ عالماً آخر؛ لأنه ذكر فيه التغير من حال إلى حال، فدل إثبات التغير على هلاكها[٢] .

٥- منة الله تعالى على العباد :

منَّ الله تعالى على عباده بنعمه التي لا تحصى، وكان للجبال نصيبها من هذا الذكر، إذ ارتبط ذكر الجبال بما خلقه الله تعالى في معرض الامتنان على العباد :

أ- سجود الجبال ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝١٨﴾ [الحج الآية ١٨] .

فقد ذكرت الجبال هنا لبيان انقيادها إظهاراً للخدمة[٣]، وسجود الجبال هو ظلاله حين تطلع عليه الشمس، وحين تزول، إذا تحولّ ظلّ كل شيء، فهو سجوده[٤] .

ب- إنزال المطر: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ

---

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٣٦٤/٢ .

(٢) ينظر: لسان العرب، مادة (دكك): ٤٢٤/١٠، وتأويلات أهل السنة : ٢٠٤/٩، وبيان المعاني المؤلف، لعبد القادر بن ملاّ حويش السيد محمود آل غازي العاني (ت ١٣٩٨هـ)، مط: الترقي - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٥م: ٣٤٧/٢، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، لعبد السلام أحمد الراغب، مط: فصلت للدراسات والترجمة والنشر - حلب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م: ص: ٣٣٠.

(٣) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٣٦٣/٢ .

(٤) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٥٨٦/١٨ .

خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النُّور الآية ٤٣].

قيل في معنى الجبال بالآية ذلك قولان:

أحدهما أن معناه أن الله ينزل من السماء من جبال في السماء من برد مخلوقة هنالك خلقه، كأن الجبال على هذا القول هي من برد، كما يقال: جبال من طين.

والقول الآخر: أن الله ينزل من السماء قدر جبال، وأمثال جبال من برد إلى الأرض[١].

وقد أيد العلم الحديث وجود أنواع كثيرة من السحب والقليل منها هو المطر، وقد صنف علماء الأرصاد السحب إلى أنواع متعددة تعتمد على ارتفاع قاعدتها وسمكها وطريقة تكوينها، وأحد أنواع هذه السحب يسمى بالسحب الركامية، وهي الوحيدة التي قد تتطور بإذن الله لتصبح ما يسمى بالركام المزني الذي يجود بالمطر الوفير، وهو النوع الوحيد الذي قد يصاحبه البرد والبرق والرعد، ويتميز هذا النوع بسمك كبير، وقد يصل إلى أكثر من ١٥ كيلو متراً، ويشبه الجبال[٢].

ج- ألوان الجبال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾﴾ [فَاطِر الآية ٢٧][٣].

- **في معنى الجبال قولان:**

الأول أنشأ الجبال مختلفة من بيض وحمر وغرابيب، كما أنشأ الثمرات والدواب والحيوان كلها مختلفة.

الثاني أنه وصفها بالسواد للطرق التي أنشأها في الجبال ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كاختلاف الجبال والثمار، وغرابيب: جمع غربيب، وهو الشديد السواد، والجدد: الخطوط والطرائق في الجبال[٤].

٦- ضرب الأمثال بالجبال:

ضرب المثل بالجبال لبيان حال بعض الناس وأوصافهم، منها:

أ- تشبيه مكر الكفار: وبيان مَكْر وحِيلة أهل القرون الماضية[٥] فقد شبّه تعالى أثر مكر الكفار بالجبال في

---

(١) سورة النور: الآية ٤٣.

(٢) ينظر: جامع البيان: ٢٠٢/١٩.

(٣) ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، إصدارات جامعة المدينة العالمية، ماليزيا، بلا تاريخ: ١٠.

(٤) سورة فاطر: الآية ٢٧.

(٥) ينظر: تأويلات أهل السنة: ٤٨٤/٨.

قوله ڈ ﴿ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ [إِبۡرَاهِيم الآية ٤٦][1].

ب- النهي عن التكبر: ٹ ڈ ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإِسۡرَاء الآية ٣٧]. فقد ذكرت الجبال لقهر المتكبّرين عن الرّعونة والتكبّر[2].

ج- الأمانة: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأَحۡزَاب الآية ٧٢][3].

د- عظم الافتراء على الله تعالى: وذلك بادعاء المشركين أن لله سبحانه ولداً تعال عن ذلك علواً كبراً، ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ [مَرۡيَم الآية ٩٠]. فقد ذكرت الجبال لتبين عظم ما يقوله المتكبّرون والمدّعون[4].

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٣٦٢/٢.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٣٧.

(٣) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٣٦٣/٢.

(٤) سورة مريم: الآية ٩٠.

المبحث الثاني

أوصاف الجبال

لقد بين القرآن الكريم بعض أوصاف الجبال، منها ما هو معروف بالرؤية لكل إنسان، ومنها ما لا يمكن التوصل إليه بالحواس المعتادة ولكن أثبته العلم الحديث، ومنها ما سيجري عند قيام الساعة وهذا ما سأتناوله في المبحث الثالث، فمجمل أوصاف الجبال هي:

١- الأوصاف المرئية :

إن الأوصاف المرئية للجبال هي :

أ استقراره : يشير إليه ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ﴾ [الأَعْرَاف الآية ١٤٣] (٥)، إذ إن الحالة العامة للجبل هي الاستقرار، ولذلك اشترط المشركون تسيير جبال مكة في مقابل التصديق بدعوة النبي ﷺ، كما في قوله ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ [الرَّعْد الآية ٣١] .

ب- انتصابها : ﴿ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩﴾ [الغَاشِيَة الآية ١٩] .

ج- إمكانية نحتها واتخاذها سكناً : ﴿ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ [الشُّعَرَاء الآية ١٤٩] .

د- إنها تحقق الأمن : ﴿ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾ [الحِجْر الآية ٨٢] ، وكما في قول ابن نوح ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هُود الآية ٤٣] .

هـ- يختلف لونها بكثرة المشي عليها ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧﴾ [فَاطِر الآية ٢٧] .

و ارتفاعها الشاهق لذلك ضرب بها المثل ﴿وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾ [الإِسْرَاء الآية ٣٧] .

ز- ضخامتها :كما يتبين ذلك من تشبيه الأمواج العظيمة بالجبال كما في قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢﴾ [هُود الآية ٤٢] .

٢- الأوصاف غير المرئية :

وصفت الجبال بأوصاف غير معهودة إما تعجز عن إدراكها الحواس المعتادة، أو أنها كانت من المعجزات. وهذه الأوصاف هي :

---

(٥) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٢/ ٣٦٣ .

أ- تسبيح الجبال :

التسبيح في لغة يأتي بمعنى التنزيه، تقول: سبحت الله تسبيحاً: أي نزهته تنزيها، ويأتي بمعنى الذكر والصلاة، يقال: فلان يسبح الله: أي يذكره بأسمائه، نحو: سبحان الله. وهو يسبح أي يصلي السبحة وهي النافلة، ويكون بمعنى التحميد، نحو: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣﴾ [الزُخرُف الآية ١٣] أي الحمد لله[١].

ولا يكاد يخرج المعنى الاصطلاحي للتسبيح عن المعنى اللغوي.

قال تعالى : ﴿عِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ﴾ [الأَنبِيَاء الآية ٧٩][٢]، وقوله سبحانه : ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سَبَإ الآية ١٠] ، وقال جل جلاله : ﴿ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾ [ص الآية ١٨] .

وهذه من معجزات داود عليه السلام ـ إذ إن تسبيح الجبال أمر خارق للعادة، فهو جماد أصم، لا روح فيه ولا حياة، وليس المراد بالتسبيح هنا آثار الصنعة (أي أنه تسبيح خلقة) ، في السَّموَاتِ وفي الأرضِ ومن فيهما، بل المراد التسبيح على حقيقته، وإلا لما كان الأمر بالتسبيح مع داود عليه السلام فائدة[٣] .

تتحدث الآيات عن معجزة لداود عليه السلام ـ وهي تسبيح الجبال، وللمفسرين في المقصود من التسبيح أقوال :

القول الأول : إن التسبيح هنا بصوت مسموع . واختلف القائلون بهذا على رأيين:

الأول أن داود عليه السلام كان وحده يسمعه[٤] .

الثاني: يسمعه كل الناس[٥] .

القول الثاني : إنه صوت يظهر له من جانب الجبال وليس منها، أي : بمعنى الصدى[٦] .

---

(١) سورة الزخرف: الآية: ١٣.

(٢) لسان العرب، مادة (سبح): ٤٧١/٢، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، (ت٧٧٠هـ)، مط: المكتبة العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، مادة (سبح): ٢٦٢/١، وتاج العروس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، مط: دار الهداية مادة، الطبعة: الأولى، مادة (سبح): ٤٤٩/٦.

(٣) سورة ص : الآية ١٨ .

(٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، (ت٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ١٩٨٨م : ١٢١/٥ ؛ تأويلات أهل السنة : ٦١١/٨ .

(٥) ينظر: تفسير يحيى بن سلام، ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة التيمي بالولاء البصري الإفريقي القيرواني، (ت٢٠٠هـ)، تقديم وتحقيق: الدكتورة هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ٢٠٠٤م : ٣٢٠/١ .

(٦) ينظر: النكت والعيون : ٥٣/٣ ؛ البحر المحيط : ٣٣١/٦ .

واعترض عل هذا القول أنه خلاف الظاهر، وليس فيه إظهار للمعجزة[١] .

القول الثالث : إن التسبيح بلسان الحال، أي : لا يسمع لتسبيحهن صوت، مثل تسبيح كل المخلوقات[٢]، أي بمثابة قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسْرَاء الآية ٤٤][٣] .

واعترض أن هذا يخالف ظاهر الآية، فلو«كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود عليه السلام فائدة»[٤] .

القول الرابع : يسبحن بمعنى يسرن من السباحة[٥] .

القول الخامس : إن إسناد التسبيح إليهن مجاز ؛ لأنها كانت تسير معه فتحمل من رآها على التسبيح، فأسند إليها[٦] .

وتعقب القولين الأخيرين بمخالفتهما للظاهر مع أن هذا المعنى لم يذكره أهل اللغة ولا جاء في آية أخرى، أو خبر سير الجبال معه عليه السلام[٧] .

فالراجح هو القول الأول، لموافقته النص القرآني، فهذه معجزة والمعجزة هي أمر خارق للعادة .

- **أما كيف كانت الجبال تسبح، فعلى ثلاثة أقوال :**

الأول : إذا ذكر داود ربه ذكرت الجبال والطير ربها معه[٨].

الثاني : إذا سبح داود أجابته الجبال.

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بـ(تفسير البيضاوي)، لأبي سعيد ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي الشافعي، (ت٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م : ٤٤/٤ .

(٢) ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ: ٧٦/١٧ .

(٣) ينظر: أنوار التنزيل : ٥٧/٤ ؛ روح المعاني : ٧٦/١٧ .

(٤) سورة الإسراء : من الآية ٤٤.

(٥) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، (ت١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير دمشق، دار الكلم الطيب بيروت، ط١، ١٤١٤هـ: ١٩٩/٥ .

(٦) ينظر: أنوار التنزيل : ٥٧/٤ ؛ فتح القدير: ١٩٩/٥ ؛ روح المعاني : ٧٦/١٧ .

(٧) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن المعروف بـ(تفسير الطبرسي)، لأبي علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي الطوسي السبزواري، (ت٥٤٨هـ)، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت لبنان ١٤١٥هـ١٩٩٥م : ٤٧/١٧ .

(٨) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، لأبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي المتوفى سنة (١٥٠هـ) تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية لبنان، ط١، ١٤٢٤ هـ٢٠٠٣م : ٨٨/٣ .

الثالث : كان إذا وجد فترة أو خمولاً أمر الله الجبال فسبحت فيزداد نشاطاً واشتياقاً[١].

والذي يبدو راجحاً هو الأول ؛ لأن كلمة (مع) في الآيات كلها تفيد المصاحبة لا السبق، كما أن تسبيحها عند الفتور يعني أن التسبيح سوف لن ينقطع، وهذا متعذر بحق البشر، إذ عليه واجبات وله حقوق ينبغي أن يأتي بها . وكذلك اختلف في نوع هذا التسبيح، فقيل : هو الصلاة ويؤيده ذكر العشي والإشراق، وقيل : هو ذكر الله بالتنزيه[٢]، والذي يبدو أن القول الثاني هو الصحيح ؛ لأنه لا ضرورة في صرف اللفظ عن ظاهره، وأن ذكر العشي والإشراق ليس دالاً على الصلاة بل على تواصل التسبيح وتنوع أوقاته .

ج- خشوع الجبل :

قال تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر الآية ٢١] . وهذا مثال ضربه الله تعالى ليبين الأثر الذي يحدثه القرآن وأنه أعظم من أن تقوم له من الأرض جبالها الرواسي.

ومن أقوال المفسرين في هذا الخشوع قول الطبري : « يقول جل ثناؤه : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل وهو حجر لرأيته يا محمد خاشعاً، يقول : متذللاً متصدعاً من خشية الله على قساوته حذراً من أن لا يؤدي حق الله المفترض عليه في تعظيم القرآن ... وعن ابن عباس يقول : لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حمّلته إياه تصدّع وخشع من ثقله ومن خشية الله، فأمر الله عز وجل الناس إذا أنزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . وعن قتادة : يعذر الله الجبل الأصم ولم يعذر شقي ابن آدم هل رأيتم أحداً قط تصدمت جوانحه من خشية الله »[٣] .

فإن كان الجبل الأصم يخشع ويتصدع من خشية الله في حال جعلنَا لَهُ مَا يُمَيّز وَيعْقل، فما بالكم أيها البشر؟ والجبل هنا مذكور على طريق التمثيل لا على طريق الحقيقة[٤] .

ولهذا جاءت دعوة الناس على العموم، والمشركين على وجه الخصوص للتفكر في آيات الله، والتي تدل على أن هذا الكون العظيم له مدبر وخالق، وجاء الاستشهاد بالجبال لهذا الغرض في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ [الغَاشِيَة الآية ١٩] ، أي : كيف وجدت بهذا الوضع الباهر بأن نصبت على وجه الأرض نصباً ثابتاً راسخاً، يحمى الأرض من الاضطراب والتزلزل. فهو توبيخ لأولئك المشركين الذين عموا

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب : ٢٢/ ١٩٩ ٢٠٠ .

(٢) ينظر: معالم التنزيل : ٣/ ٣٠٠ .

(٣) جامع البيان : ٢٨/ ٥٣ .

(٤) ينظر: تفسير السمعاني، لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار السمعاني، (ت٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض السعودية، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م : ٥/ ٤٠٨.

وصموا عن الحق، ولم ينتبهوا لآيات الله تعالى الدالة على قدرته ووحدانيته[١].

د- دك الجبل: قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ ﴾ [الأعراف الآية ١٤٣].

«إن موسى عليه السلام سأل الله عز وجل الرؤية في الدنيا، وأن الله سبحانه تجلى للجبل فجعله دكاً، فأعلم بذلك موسى أنه لا يراه في الدنيا»[٢].

الدك: هدم الجبل والحائط ونحوهما، دكه يدكه دكاً[٣].

و- «إن الجبل، في ضخامة كونه، وشدة أسره، لم يتحمّل لمحة من لمحات تجلّى الذات الإلهية له، لقد استشعر هذا الحجر الأصمّ جلال الله وعظمته، فتهاوى، وتفتت، وصار حطاماً، فكيف بالإنسان وضالة جسمه، وما فيه من مشاعر وأحاسيس؟ أيحتمل شيئاً من هذا الجلال، وتلك الخشية التي تصدّع لها الجبل، وتشقق، ثم هوى؟ لقد صعق موسى مما رأى من الجبل، ومن تصدعه وتشققه وتهاويه، فكيف لو كان ما نزل بالجبل نزل به»[٤]؟

هـ- سجود الجبال: قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ١٨ ﴾ [الحج الآية ١٨]، فسجوده بيان أثر الصَّنعة فيه، والخضوع الذي يدل على أنه مخلوق[٥].

ورفع الجبل: قال تعالى: ﴿ ۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١ ﴾ [الأعراف الآية ١٧١].

---

(١) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمحمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م: ١٥/ ٣٧٨.

(٢) الإِبَانَة عن أُصُول الديانة، لأبي الْحَسَن علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري، (ت ٣٢٤هـ)، تحقيق: د. فوقية حسين محمود، دار الأنصار، الطَبْعَة الأُولَى، القاهرة ١٣٩٧هـ: ٢/ ٢١-٣٥.

(٣) ينظر: لسان العرب، مادة (دكك) ١٠/ ٤٢٤.

(٤) التفسير القرآني للقرآن الكريم، عبد الكريم يونس الخطيب، (ت١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي، بيروت، بلا تاريخ: ٥/ ٤٧٧.

(٥) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد المعروف بابن الجوزي، (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ: ٢/ ٥٦٣، ٣/ ٢٢٧.

الآية تتحدث عن رفع الجبل فوق بني إسرائيل، والمعنى : أننا زعزعنا الجبل فاستخرجناه من مكانه . وكل شيء قلعته فرميت به فقد نتقته . وقيل : قُلع من أصله[١] .

ز- تثبيت الأرض : كما قوله تعالى : ﴿ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧ ﴾ [النَّبَإ الآية ٧] ، وقد سبق بيان ذلك .

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن : ٢٩٦/١ .

المبحث الثالث

دك الجبال

من أجل بيان أهوال قيام الساعة ولتقريب الصورة إلى أذهان الناس بيَّن الله تعالى ما يصاحبها من ظواهر كونية خطيرة، ومنها ما يجري للجبال، وتخصيص الجبال بالذكر لأنها رمز للرسوخ والثبات والضخامة، وقد ثبتت أمام التغيرات المناخية والبيئية آلاف السنين، لذا فبيان ما يحل بهذا الرمز من شأنه أن يقرب هذه الأهوال إلى الأذهان، إذ يجري عليها ما يأتي :

١- تسيير الجبال: التسيير في اللغة تفعيل من السير، وسيَّر الشّيءَ: أسارَه؛ حرَّكه[١].

قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النَّمل الآية ٨٨] .

والمعنى : « يسير الله الجبال فتمر مر السحاب، ثم يجعلها سراباً، وترج الأرض بأهلها رجا، فتكون الأرض كالسفينة المرنقة في البحر، أو كالقنديل المعلق بالعرش «، أي : « إنك تحسبها ثابتة في أصولها لا تتحرك»[٢]، أي : «وتنظر إلى الجبال فتراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تزول بسرعة عن أماكنها، وتسير كما يسير الغمام بتأثير الرياح، لأن الجسم الكبير إذا تحرك برتابة لا تكاد حركته تبين»[٣].

وقد جاء تأكيد السير في قوله تعالى: ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الطُّور الآية ١٠] فكلمة (سيراً) تأكيد للفعل، وتمثل التأكيد في إعادة الفعل بمصدره «وهو غرض من تكرار الفعل مرتين وفائدته رفع توهم المجاز عن الفعل»[٤]. كما أكد تعالى أن هذا التسيير من الأحوال المصاحبة لقيام الساعة وليس من قبيل الأحداث

---

(١) طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، لعمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل النسفي (ت ٥٣٧هـ)، مط: المطبعة العامرة، مكتبة المثنى ببغداد، الطبعة: الأولى، : ١٣١١هـ : ص١٤٣، ومعجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عبد الحميد عمر (ت١٤٢٤هـ)، مط: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، مادة (سير): ٢ / ١١٤٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، لعبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي بن أبي حاتم . (ت٣٢٧هـ)، تحقيق : أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ: ٩/ ٢٩٣٣ .

(٣) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٢، ١٤١٨هـ: ٢٠/ ٤٢ .

(٤) الإتقان في علوم القرآن، لأبي الفضل عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، (ت٩١١هـ)، المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ١٩٧٤م : ٢ / ٦٧

البيئية المعتادة مثل الزلازل والبراكين وغيرهما، فنسب هذا الأمر إلى ذاته العليا تأكيداً وتوضيحاً ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف الآية ٤٧] .

٢- نسف الجبال :

النسف في اللغة بمعنى القلع من نَسَفْتُ البناء نَسْفاً: قلعْته، ونَسَفَ البعيرُ الكلأ ينسفه بالكسر، إذا اقتلعه بأصله، وانتسفت الشئ اقتلعته، والمنسف، والنسف، مصدرا نسف الشَّيْء: فرقه، وأذراه، وَأَيْضاً حركه ليطير غباره[١].

تنوعت الألفاظ الدالة على نسف الجبال، وكلها تفيد غرضاً واحداً هو زوالها بعد تسييرها ؛ وفيما يأتي عرض لنسفها على حسب التسلسل الزمني والمنطقي .

ويبدو أنه بعد تسييرهما تأتي الخطوة الأخرى ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ [الحاقَّة الآية ١٤] ، أي تدك الأرض الجبال بضربة واحدة حتى تفتت[٢]، وتصير كما قال سبحانه ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ [القَارِعَة الآية ٥] ، والعهن : الصوف المصبوغ ألواناً[٣] .

ويأتي الوصف الآخر التالي: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾[المُزَّمِّل الآية ١٤]. يلاحظ أن كلمة (تَرْجُفُ) سبقت كلمة (يوم) ليؤكد لنا الله تعالى أن الأرض ستهتز وترجف في ذلك اليوم : يوم القيامة . و ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ [المُزَّمِّل الآية ١٤] الكثيب : ما ارتفع من الرمل المتجمع[٤] . والمهيل : ينهال فيتساقط من جوانبه، والأهيل والمنهال واحد، وهو السائل . والمعنى تصبح الجبال : رملاً سائلاً[٥] .

وتأتي المرحلة الأخرى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ [الوَاقِعَة من الآية ٥ الى الآية ٦]، أي : فتت كما قال ابن عباس، ومجاهد : حتى صارت كالسويق الملتوت من بس السويق إذا لتَّه . وقيل : سيقت وسيرت من أماكنها من بس الغنم إذا ساقها، إي إنها سيرت[٦]، فصارت بسبب ذلك غباراً متفرقاً[٧] .

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (نسف): ١٤٣١/٤، وإكمال الإعلام بتثليث الكلام، لمحمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني (ت٦٧٢هـ)، تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي، مط: جامعة أم القرى - مكة المكرمة - المملكة السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ه -.١٩٨٤م: ٦٨٨/٢.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب : ٨ / ٢٨٣ .

(٣) ينظر: لسان العرب : مادة (عهن) ٢٩٧/١٣ .

(٤) ينظر: غريب الحديث، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، (ت ٢٧٦هـ) تحقيق : د. عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، الطبعة الأولى، بغداد . ١٣٩٧هـ: ٢٣١/٢ ؛ لسان العرب: مادة (كثب) ٧٠٢/١ .

(٥) ينظر: لسان العرب : مادة (هيل) ٧١٤/١١

(٦) ينظر: لسان العرب : مادة (بست) ١٠/٢ ؛ البحر المحيط : ٨ / ٢٠٤.

(٧) ينظر: لسان العرب : مادة (بست) ١٠/٢ ؛ البحر المحيط : ٨ / ٢٠٤ ؛ روح المعاني : ١٣١/٢٧.

والبس في أصل اللغة يطلق على معنيين : أحدهما السوق، والآخر فت الشيء وخلطه[١]، وكلا المعنيين يتوافق مع السياق القرآني، وإن كان التفسير باللت أنسب ليغاير السير، وليضفي هذا على مصي الجبال معنىً جديداً .

وفي المرحلة الأخيرة قوله تعالى : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه من الآية ١٠٥ الى الآية ١٠٧] .

أي : إن سألتم عن مصير الجبال الشاهقة عندما تقوم الساعة، فسيكون مصيرها كذا وكذا، كما جاء في سبب النزول : « قالت قريش : يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ؟ فنزلت الآية»[٢] ؛ والسؤال عنها ؛ لأن الجبال رمز للصلابة والثبات فجرى الاستهلال بالسؤال والجواب عنه .

والمعنى أن الجبال تنسف وتسوى بالأرض حتى تصبح الأرض مستوية لا اختلاف فيها .

فقد أخبر الله تعالى عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأهوال المقلقة، والشدائد المزعجة في الآيات السابقات، فيزيل الجبال عن أماكنها، يجعلها كثيباً، ثم يجعلها كالعهن المنفوش ثم تضمحل وتتلاشى، وتكون هباءً منبثاً، وتبرز الأرض، فتصير قاعاً صفصفاً، لا عوج فيه ولا أمتاً[٣].

(١) ينظر: مقاييس اللغة، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ١٩٧٩م : مادة (بس) ١٨١/١ .

(٢) لباب النقول في أسباب النزول، لأبي الفضل عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، (ت٩١١هـ)، دار إحياء العلوم . بيروت، بلا تاريخ: ٤٢٣ .

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، (ت١٣٧٦هـ)، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ٢٠٠٠م : ٣ / ١٥ .

الخاتمة

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على خير خلقه سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه .

بعد هذا العرض للمدلولات العامة للجبال في القرآن الكريم ألخص أهم ما استنتجته من خلال طيات البحث على الترتيب الآتي :

ذكرت الجبال في القرآن الكريم بصيغ مختلفة (٣٩) مرة .

ارتبط ذكر الجبال بقصص عدد من الأنبياء عليهم السلام وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وداود، ورسول الله ﷺ.

ارتبط ذكر الجبال لبيان وظيفتها بتثبيت الأَرض .

ارتبط ذكر الجبال بالعمران واتخاذ البيوت، ولم يقتصر الأمر على البشر، بل جاء ذكر النحل أيضاً .

ورد ذكر الجبال في بيان منة الله تعالى وفضله على عباده .

ضرب المثل بالجبال لبيان حال بعض الناس وأوصافهم .

ورد ذكر الجبال في بيان أهوال قيام الساعة .

هذه هي أهم النقاط التي تضمنها هذا البحث، والله الموفق للصواب.

المصادر والمراجع

١. الإِبَانَة عن أُصُول الديانة، لأبي الْحَسَن علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري، (ت ٣٢٤هـ)، تحقيق: د . فوقية حسين محمود، دار الأنصار، الطَبْعَة الأُولَى، القاهرة ١٣٩٧هـ.
٢. الإتقان في علوم القرآن، لأبي الفضل عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، (ت٩١١هـ)، المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ١٩٧٤م .
٣. الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، إصدارات جامعة المدينة العالمية، ماليزيا، بلا تاريخ .
٤. إكمال الإعلام بتثليث الكلام، لمحمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني (ت٦٧٢هـ)، تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي، مط: جامعة أم القرى - مكة المكرمة - المملكة السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ-.١٩٨٤م.
٥. إكمال الإعلام بتثليث الكلام، لمحمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني (ت٦٧٢هـ)، تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي، مط: جامعة أم القرى - مكة المكرمة - المملكة السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
٦. أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بـ(تفسير البيضاوي)، لأبي سعيد ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي الشافعي، (ت٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ١٩٩٧م .
٧. البحر المحيط، لأبي عبدالله أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي، الشهير بابن حيان وبأبي حيان، (ت٧٥٤هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.
٨. بصائر ذوي التمييز، لأبي الطاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الصديقي الشيرازي، (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٩م .
٩. بيان المعاني، لعبدالقادر ملا حويش آل غازي العاني، (ت١٣٩٨هـ)، مطبعة الترقي، دمشق، ١٣٨٣هـ ١٩٦٤م .
١٠. تاج العروس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، مط: دار الهداية مادة، الطبعة: الأولى.

١١. تأويلات أهل السنة، لأبي منصور محمد بن محمد الماتريدي، (ت٣٣٣هـ)، تحقيق : د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ٢٠٠٥م .
١٢. تفسير ابن باديس مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، لعبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، (ت١٣٥٩هـ)، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه : أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤١٦هـ١٩٩٥م .
١٣. تفسير السمعاني، لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار السمعاني، (ت٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس ابن غنيم، دار الوطن، الرياض السعودية، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م .
١٤. تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، لعبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم . (ت٣٢٧هـ)، تحقيق : أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ .
١٥. التفسير القرآني للقرآن الكريم، عبد الكريم يونس الخطيب، (ت١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي، بيروت، بلا تاريخ .
١٦. تفسير المظهرى، محمد ثناء الله العثماني الحنفي المظهري الباني بتي، (ت١٢٢٥هـ)، تحقيق: غلام نبى تونسى، المكتبة الرشدية، باكستان، ١٤١٢هـ .
١٧. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٢، ١٤١٨هـ .
١٨. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمحمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م .
١٩. تفسير مقاتل بن سليمان، لأبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي المتوفى سنة (١٥٠هـ) تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية لبنان، ط١، ١٤٢٤ هـ٢٠٠٣م .
٢٠. تفسير يحيى بن سلام، ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة التيمي بالولاء البصري الإفريقي القيرواني، (ت٢٠٠هـ)، تقديم وتحقيق: الدكتورة هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م .
٢١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، (ت١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ٢٠٠٠م .
٢٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بـ(تفسير الطبري)، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي الطبري، (ت٣١٠هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة،

مصر، ط١، ١٤٢٠هـ٢٠٠٠م .
٢٣. جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بـ(تفسير الطبري)، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن كثير بن غالب الآملي الطبري، (ت٣١٠هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، مصر، ط١، ١٤٢٠هـ٢٠٠٠م.
٢٤. الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لأبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي، (ت٦٧١هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ٢٠٠٣م .
٢٥. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ .
٢٦. زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد المعروف بابن الجوزي، (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ .
٢٧. الصحاح تاج اللغة لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، مط: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.
٢٨. طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، لعمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل النسفي (ت ٥٣٧هـ)، مط: المطبعة العامرة، مكتبة المثنى ببغداد، الطبعة: الأولى، : ١٣١١هـ.
٢٩. علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، لهادي نهر لعيبي، مط: دار الأمل للنشر والتوزيع - إربد - الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م.
٣٠. غريب الحديث، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، (ت ٢٧٦هـ) تحقيق : د. عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، الطبعة الأولى، بغداد . ١٣٩٧هـ .
٣١. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد ابن علي بن محمد الشوكاني، (ت١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير دمشق، دار الكلم الطيب بيروت، ط١، ١٤١٤هـ .
٣٢. الفكرة الجيولوجية عن الجبال في القرآن، الدكتور زغلول النجار، إصدارات هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابطة العالم الإسلامي، مكة، ١٩٩٢م .
٣٣. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، (ت٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ .
٣٤. لباب النقول في أسباب النزول، لأبي الفضل عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، (ت٩١١هـ)، دار إحياء العلوم . بيروت، بلا تاريخ.

٣٥. لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٦٨م .
٣٦. مباحث في إعجاز القرآن، د . مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤٢٦هـ٢٠٠٥م .
٣٧. مجمع البيان في تفسير القرآن المعروف بـ(تفسير الطبرسي)، لأبي علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي الطوسي السبزواري، (ت٥٤٨هـ)، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت لبنان ١٤١٥هـ١٩٩٥م .
٣٨. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، (ت٧٧٠هـ)، مط: المكتبة العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى
٣٩. معالم التنزيل المعروف بـ(تفسير البغوي)، لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، (ت٥١٦هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ .
٤٠. معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، (ت٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ١٩٨٨م .
٤١. معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عبد الحميد عمر (ت١٤٢٤هـ)، مط: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
٤٢. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبدالباقي، مطابع الشعب، مصر، ط١، ١٣٧٨هـ.
٤٣. مفاتيح الغيب المعروف بـ(التفسير الكبير)، وبـ(تفسير الرازي)، لأبي عبدالله فخر الدين محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل الشافعي المذهب الرازي، (ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، مصر، ط٣، ١٤٢٠هـ .
٤٤. مقاييس اللغة، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ١٩٧٩م .
٤٥. المقدمات في الجغرافيا الطبيعية، للدكتور عبد العزيز طريح شرف، مط: مركز الأسكندرية للكتاب، الطبعة: الأولى.
٤٦. المقدمات في الجغرافيا الطبيعية، للدكتور عبد العزيز طريح شرف، مط: مركز الأسكندرية للكتاب، الطبعة: الأولى.
٤٧. النكت والعيون، المعروف بـ(تفسير الماوردي)، لأبي الحسن علي ابن حبيب البصري، (ت٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود ابن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ٢٠٠٤م .